قصة قتل بني إسرائيل لأنفسهم توبة إلى الله من عبادة العجل

سليمان بن إبراهيم بن محمد الحصين

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء

الملخص

ذكر القرآن الكريم أحوالاً مختلفة لبني إسرائيل في موقفهم من أنبياء الله عز وجل ورسله، ومن هذه الأحوال عبادتهم للعجل في زمن نبي الله موسى عليه السلام وأن الله تعالى قد غضب عليهم بسببه، وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وظاهر القرآن يدل على أن الله عز وجل عفا عنهم ولم يعاقبهم على فعلتهم هذه، قال الله تعالى ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وقد ذكرت بعض كتب التفسير أن العفو عنهم كان بعد قتل بعضهم بعضاً توبة إلى الله من عبادة العجل استجابة لما أمرهم به نبي الله موسى عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وقد اعتمدوا في إثبات استجابتهم لقتل أنفسهم على روايات إسرائيلية تفيد بوقوع مقتلة عظيمة تجاوزت سبعين ألفاً.

فجاء هذا البحث لرد هذه الروايات وإبطالها وإثبات أن ظاهر القرآن يدل على أن العفو عنهم منة من الله وفضل لم يكن بسبب قتل أنفسهم، وليس في القرآن إشارة إلى أنهم استجابوا فوجب التوقف عند ظاهر القرآن. والله تعالى أعلم.

الكلمات المفتاحية: بنو إسرائيل، عبادة العجل.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى قد أنزل علينا كتاباً عظيماً فصَّل فيه لنا كل ما نحتاج إليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف: 52) وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة النحل: 89).

وقد وصف الله سبحانه وتعالى كتابه بالإحكام والتفصيل فقال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سورة هود: 1).

ويدخل في هذا: الأحكام والأخبار على حد سواء؛ فقصص القرآن وأخباره تليت علينا بالحق الذي لا زيادة فيه ولا نقص. قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة المائدة: 27). وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (سورة الكهف: 13).

ومن الأخبار العظيمة خبر نبي الله موسى عليه السلام مع بني إسرائيل؛ فقد تجلى لنا فيه عظم صبر نبي الله موسى عليه السلام على قومه مع شدة إعراضهم وعنادهم واستكبارهم؛ فقد سألوا موسى عليه السلام أن يريهم الله عز

وجل جهرة، وسألوه أن يجعل لهم إلهاً كما للمشركين آلهة، ولما يئسوا منه صنعوا لهم من حُليهم عجلاً فاتخذوه إلهاً! وقد غضب عليهم نبي الله موسى عليه السلام؛ وطلب منهم أن يتوبوا إلى الله عز وجل بأن يقتل بعضهم بعضاً، فهل استجابوا لأمر نبي الله موسى عليه السلام بقتل أنفسهم وهم أشد الناس حرصاً على الحياة ؟! ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة: 96).

إذا كانوا قد عجزوا عن مجرد تمني الموت فهل يمكن أن يستجيبوا لأمر نبي الله موسى عليه السلام بقتل أنفسهم؟ هذا بعيد وغريب وغير لائق بأحوالهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة: 94- 96).

مع كل ما سبق ذكره نجد أن الروايات الإسرائيلية قد حملت لنا أخباراً غريبة تفيد أن بني إسرائيل قد استجابوا لما أمرهم به نبي الله موسى عليه السلام من قتل أنفسهم توبة إلى الله من عبادة العجل، وأنه قد حصل منهم مقتلة عظيمة!.

ولما رأيت أن أكثر المفسرين قد أورد هذه الروايات دون تعقب لها عزمت أن أكتب في هذه المسألة مبيناً بطلان قصة قتل بني إسرائيل لأنفسهم توبة إلى الله من عبادة العجل؛ ومخالفة القصة لأحوال بني إسرائيل من وجوه متعددة، وأن المراد بتوبة الله عز وجل عليهم المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة: 54) هو رفع الحكم الذي أمرهم به نبي الله موسى عليه السلام من قتل أنفسهم توبة إلى الله، وليس المراد أن التوبة كانت بعد الاستجابة والانقياد؛ إذ لو وقع ذلك لذكر في الآية، ولاستحق القوم المدح والثناء به، ولا نجد شيئاً من ذلك في كتاب الله عز وجل.

وقد تناول أغلب المفسرين قصة قتل بني إسرائيل لأنفسهم نقلاً عن أخبار بني إسرائيل فأثبتوا استجابتهم لما طلب منهم نبي الله موسى عليه السلام من قتل أنفسهم، وأنه قد وقعت منهم مقتلة عظيمة ثم تاب الله عليهم بعد ذلك.. ولكون هذه الروايات مخالفة لظاهر القرآن أحببت أن أكتب عن هذه القصة تحت عنوان: (قصة قتل بني إسرائيل لأنفسهم توبة إلى الله من عبادة العجل). وقد جعلت البحث مكوناً من مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة.

خطة البحث:

مقدمة: أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث.

تمهيد: الروايات الإسرائيلية والموقف منها.

المبحث الأول: الآثار الواردة في القصة.

المبحث الثاني: إبطال القصة من وجوه متعددة.

المبحث الثالث: ورود التوبة بمعنى رفع الحكم والتيسير والعفو.

الخاتمة: النتائج التي تم التوصل إليها.

التمهيد: الأخبار الإسرائيلية والموقف منها.

الإسرائيليات: "جمع إسرائيلية، نسبة إلى بني إسرائيل، والنسبة في مثل هذا تكون لعجز المركب الإضافي لا لصدره، وإسرائيل هو: نبي الله يعقوب عليه السلام، وبنو إسرائيل هم: أبناء يعقوب عليه السلام، ومن تناسلوا منهم فيما بعد إلى عهد نبي الله موسى عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء، حتى عهد نبينا عيسى عليه السلام، وحتى عهد نبينا محمد ﷺ"[1].

وبناءً على هذا فلفظ الإسرائيليات يراد به: ما نقل عن اليهود والنصارى مما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وذهب بعض الباحثين إلى أن لفظ "الإسرائيليات" خاص بما يروى عن اليهود؛ وإنما أُطلق على جميع ما يروى عن اليهود والنصارى لفظ "الإسرائيليات" من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني، فإن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً[2].

الموقف من الأخبار الإسرائيلية:

نشأ عن مخالطة الصحابة رضي الله عنهم لليهود في المدينة حاجة ملحة لمعرفة الموقف من أخبارهم التي ينسبونها للكتب السماوية السابقة؛ فجاءت السنة النبوية مبينة وموضحة كيفية التعامل مع أخبار بني إسرائيل؛ قال أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ (البقرة: 136)[3].

فدل الحديث على التوقف في أخبار بني إسرائيل التي لم يتبين لنا صدقها ولا كذبها؛ لأنها قد تكون صحيحة وقد تكون باطلة، ولا سبيل لتمييز الصحيح منها من الكذب، ولا يعني ذلك النهي عن التحديث بها؛ ففرق بين روايتها وبين تصديقها؛ ويشهد لهذا التفريق ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ"[4].

قال الحافظ ابن كثير: "وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله ﷺ: (وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ)

(1) أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص 12.

(2) الذهبي، التفسير والمفسرون 168/1.

(3) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا} رقم 4485. انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري 20/8.

(4) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: 3461. انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري 572/6.

فيما قد يُجوِّزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويُحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل، والله أعلم"[1].

ولما توسع الناس في سؤال أهل الكتاب وخَشي عبدالله بن عباس ﷺأن يترتب على ذلك تصديقُ أخبارهم وتفسير القرآن بها حذَّر من سؤال أهل الكتاب فقال: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ وَكِتَابُكُمْ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللَّهِ تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ؟ وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ فَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ (سورة البقرة: 79) أَفَلا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ الْعِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ؟ وَلا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلاً قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنْ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ[2].

فتبين مما سبق أن الأخبار الإسرائيلية على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحتَه مما بأيدينا مما يشهدُ له بالصدق، فذاك يُقبل.

الثاني: ما علمنا كذبَه بما عندنا مما يخالفه؛ فيرد.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمِنُ به ولا نكذِّبه، وغالبُ ذلك مما لا فائدة فيه؛ مثل: أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعِدّتهم، وعصا موسى عليه السلام من أيِّ شجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم عليه السلام، وتعيين البعض الذي ضُرِبَ به القتيلُ من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى عليه السلام إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن الكريم، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم[3].

أثر الأخبار الإسرائيلية على التفسير

ترتب على إيراد بعض المفسرين للروايات الإسرائيلية دون تبيين الموقف منها ارتباط معنى الآية بالرواية الإسرائيلية والتأثر بها في فهم الآية، أو صرف ظاهر الآية تأثراً بالرواية الإسرائيلية؛ قال الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية: (50) من سورة الكهف بعد أن ذكر أقوالاً في اسم: إبليس، ومن أيّ قبيلٍ هو؟! قال: "وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبُها من الإسرائيليات التي تُنقل ليُنْظَر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يُقْطَع بكذبه، لمخالفته للحقّ الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضِعَ فيها أشياءُ كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة الأتقياء، والأبرار والنجباء من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 236/4، تفسير سورة (ق).

(2) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب: لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها، رقم: 2685. انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري 344/5.

(3) ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، (التفسير) 367/13.

والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل"[1].

وأكثر ما يروى من الأخبار الإسرائيلية يتعلق بأخبار القرآن عن الأمم الماضية، وفيها من الكذب والتحريف والتبديل ما يوجب الحذر عند روايتها. قال الحافظ ابن كثير: "وما قَصَّه كثيرٌ من المفسّرين وغيرهم، فعَامّتُها أحاديثُ بني إسرائيل؛ فما وافقَ منها الحقَّ مما بأيدينا عن المعصوم قَبِلْناه؛ لموافقته الصحيح، وما خالف منها شيئًا من ذلك ردَدْناه، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ، لا نصدِّقه ولا نكذِّبه، بل نجعله وَقْفًا، وما كان من هذا الضَّرْبِ منها فقد رخَّص كثير من السلف في روايته، وكثيرٌ من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصلَ له مما يُنْتَفَع به في الدّين، ولو كانت فائدتُه تعود على المكلَّفين في دينهم لبيَّنَتْه هذه الشريعةُ الكاملةُ الشاملةُ، والذي نَسْلُكُه في هذا التفسير الإعراضُ عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتَمل عليه كثيرٌ منها من الكذب المُرَوَّج عليهم، فإنهم لا تَفْرِقَةَ عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حَرّره الأئمةُ الحُفّاظ المُتْقِنُون من هذه الأمة"[2].

ولشدة الحاجة إلى تمييز الروايات الإسرائيلية ونقدها نجد العالم الجليل الدكتور/ محمد بن محمد أبو شهبة ألف كتاباً خاصاً في ذلك سماه "الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير"، ذكر في مقدمته أن سبب تأليف الكتاب: "شدة حاجة المسلمين إلى مثل هذا المؤلف الذي يَذُبُّ عن كتاب الله تعالى ما عَلَق بتفسيره من الأباطيل، والخرافات، والأكاذيب التي كادت تطغى على التفسير الصحيح لكتاب الله تعالى، وتُخفي الكثير من جلاله، وجماله، وهدايته التي هي أقوم الهدايات.."[3].

وربما اغتر من لا علم لديه ولا بصيرة بما يراه في بعض كتب التفسير منقولاً عن بعض السلف مما أخذوه عن بني إسرائيل فيَظن أن روايتهم له دليلٌ على قبوله وتصديقه؛ مثل ما روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد﴾ (سورة ق: 1) جبل محيط بجميع الأرض. قال الحافظ ابن كثير معقباً على ذلك: "وكأن هذا - والله أعلم- من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يُلَبِّسون به على الناس أمرَ دينهم، كما افتُري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها- أحاديثُ عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته؟ وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة"[4].

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 94/3.

(2) ابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 191/3.

(3) أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص 4.

(4) ابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 236/4، تفسير سورة (ق).

وبعض الروايات الإسرائيلية ربما صحت إسناداً إلى من رويت عنه من الصحابة والتابعين فيبقى أنها ليست متلقاة عن النبي ﷺ فثبوتها إلى من رويت عنه شيء، وكونها مكذوبة في نفسها، أو باطلة، أو خرافة، شيء آخر[1].

ولذا تعين على أهل العلم نقد الروايات الإسرائيلية "وردها من جهة العقل والنقل، وبيان أنها دخيلة على الإسلام، ومدسوسة على الرواية الإسلامية، وبيان من أين دخلت عليه؛ وذلك بتأليف كتاب، أو كتب في هذا، ونشرها نشراً موسعاً، بحيث يستفيد منها كل مثقف، وكل متعلم، بل وكل من يحسن القراءة، وبذلك نقضي على ما في بعض كتب التفسير من شرور الإسرائيليات وسمومها التي أفسدت عقول كثير من الناس"[2].

قال الحافظ ابن كثير: "ثم ليُعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا"[3].

والاشتغال بالأخبار الإسرائيلية يفضي غالباً إلى الإعراض عن تدبر القرآن الكريم والانتفاع به؛ وقد أشار إلى هذا المعنى الشيخ/ محمد بن حسين الذهبي حيث قال: "وكذلك على المفسِّر أن يتجنب ذكر ما لا يصح من أسباب النزول، وأحاديث الفضائل، والقَصص الموضوع، والأخبار الإسرائيلية، فإن هذا مما يذهب بجمال القرآن، ويُشغِل الناس عن التدبر والاعتبار"[4].

ولكون الاشتغال بالروايات الإسرائيلية قد يفضي إلى ترك ظاهر الآيات نجد من المفسرين من يدعو إلى الحزم في الإعراض عن جميع الروايات الإسرائيلية وترك إدخالها في تفسير كتاب الله عز وجل. قال الشيخ ابن سعدي: "فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع نبي الله سليمان عليه السلام، وما عدا ذلك من الفروع المولَّدة، والقصص الإسرائيلية فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها على الدليل المعلوم عن المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك، فالحزم كل الحزم الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفاسير. والله أعلم"[5].

وربما تضمنت الروايات الإسرائيلية معاني زائدة على ظاهر الآية فينبغي الحذر من تقييد الآية بها إلا بحجة؛ لقول نبينا ﷺ في الحديث الصحيح: "ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقا لم تكذبوهم وإن كان باطلا لم تصدقوهم"[6].

ومما ينبغي التنبه له أنه بعد عصر التابعين جاء "من عَظُم شَغَفُه بالإسرائيليات، وأفرط في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يَرُدُّون قولاً، ولا يُحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كلَّ ما يُروَى لهم وإن كان لا يتصوره

(1) أبو شهبة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص 96.

(2) المرجع السابق 9.

(3) ابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 427/3.

(4) الذهبي، التفسير والمفسرون 279/1.

(5) السعدي، تفسير ابن سعدي المسمى "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص 606.

(6) أخرجه أبو داود 59/4، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب رقم 3644، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة 712/6، رقم: 2800.

العقل!"[1].

أثر الإسرائيليات في التفسير

لقد كان للروايات الإسرائيلية التي أخذها بعض المفسِّرين عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيئ في التفسير؛ ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه الأمر في عهد الصحابة، بل زادوا على ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقاً وإن كذباً، بل ودخل هذا النوعَ من التفسير كثيرٌ من القصص الخيالي المخترَع، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها، لاعتقاده أنَّ الكلَّ من واد واحد[2].

واجتمع مع نقل الروايات الإسرائيلية حذفُ الأسانيد في بعض كتب التفسير "فجعل مَنْ ينظر في هذه الكتب يظن صحةَ كلَّ ما جاء فيها، مما جعل كثيراً من المفسِّرين ينقلون عنها ما فيها من الإسرائيليات، والقصص المخترع على أنه صحيح كله، مع أن فيها ما يخالف النقل ولا يتفق مع العقل"[3].

المبحث الأول: الآثار الواردة في قصة قتل بني إسرائيل لأنفسهم توبة إلى الله تعالى من عبادة العجل

الروايات الواردة في قصة قتل بني إسرائيل لأنفسهم توبة إلى الله تعالى من عبادة العجل كلها تنتهي إلى بعض المفسرين من الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين الذين أخذوها عن بني إسرائيل، حيث لا نجد فيها ولا رواية واحدة مرفوعة إلى النبي ﷺ لا صحيحة ولا ضعيفة.

وهذه بعض الروايات التي ذكرت في تفسير الآية:

1. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة بن الحجاج عن أبي إسحاق عن أبي عبد الرحمن أنه قال في هذه الآية: ﴿ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) قال: "عمدوا إلى الخناجر فجعل يطعن بعضهم بعضًا".

2. ثم ساق ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير ومجاهد بن جبر قالا: "قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضًا، لا يَحنُّ رجل على رجل قريب ولا بعيد، حتى ألوى موسى عليه السلام بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فتكشف عن سبعين ألف قتيل، وأن الله أوحى إلى موسى عليه السلام أن حسبي فقد اكتفيت فذلك حين ألوى بثوبه".

3. ثم ساق ابن جرير بسنده عن ابن عباس ﷺ قال: قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة: 54) قال: "أمر موسى عليه السلام قومه - عن أمر ربه- أن يقتلوا أنفسهم قال: فاحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل وأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا؛ فانجلت الظلمة عنهم

(1) الذهبي، التفسير والمفسرون 179/1.

(2) المرجع السابق 181/1.

(3) المرجع السابق 204/1.

وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قُتِل منهم كانت له توبة، وكل من بَقِي كانت له توبة"[1].

4. ثم ساق ابن جرير بسنده عن السُّدِّي قال: لـمَّا رجع موسى عليه السلام إلى قومه قال: ﴿يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي. قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (سورة طه: 86 - 87) فَأَلقَى مُوسَى عليه السلام الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه: ﴿قَالَ يَابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (سورة طه: 94) فترك هارون عليه السلام ومال إلى السامري ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي. قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (سورة طه: 95 - 97) ثم أخذه فذبحه ثم حرّقه بالمبرد ثم ذراه في اليم فلم يبقَ بحرٌ يجري يومئذ إلا وقَع فيه شيء منه، ثم قال لهم موسى عليه السلام: اشربوا منه فشربوا فمن كان يحبه خرج على شاربه الذهب فذلك حين يقول: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ (سورة البقرة: 93) فلما سقط في أيدي بني إسرائيل حين جاء موسى عليه السلام ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: 149) فأبى الله أن يقبل توبة بني إسرائيل إلا بالحال التي كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) قال: فصفوا صفين، ثم اجتلدوا بالسيوف، فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قُتِل من الفريقين شهيدًا، حتى كَثُر القتل حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قُتِل بينهم سبعون ألفًا، وحتى دعا موسى عليه السلام وهارون عليه السلام: ربنا هلكت بنو إسرائيل، ربنا البقية البقية، فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قُتل شهيدًا، ومن بقي كان مكفَّرًا عنه، فذلك قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمِ﴾(سورة البقرة: 54).

5. ثم ساق بسنده عن مجاهد بن جبر من طريقين، ثم بسنده عن أبي العالية وابن شهاب، ثم عن الزهري وقتادة، ثم عن ابن جريج وابن إسحاق وابن زيد[2].

قال ابن جرير بعد ذلك كله: "فالذي ذكرنا عمن روينا عنه الأخبار التي رويناها كانت توبة القوم من الذنب الذي أتوه فيما بينهم وبين ربهم بعبادتهم العجل مع ندمهم على ما سلف منهم من ذلك"[3].

وقبل ابن جرير هود الهواري المتوفى سنة مئتين وثمانين من الهجرة يروي هذه الحادثة في تفسير سورة البقرة الآية (54) وينسبها للكلبي[4].

ثم جاء بعد ابن جرير من كَتَب في التفسير فتتابعوا على إيراد هذه الروايات والإشارة إليها[5].

(1) الطبري، تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" 1/679-680.

(2) الطبري، تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" 1/680- 684.

(3) المرجع السابق 1/685.

(4) الهواري، تفسير هود الهواري المسمى "تفسير كتاب الله العزيز" 1/106.

(5) انظر: الماوردي، تفسير الماوردي المسمى "النكت والعيون" 1/122، والواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد 1/140، والواحدي،

ولم أجد مَنْ نَقَدَ روايات هذه القصة نقداً علمياً أو تعرض لإبطالها وإنكارها؛ مع أن بعض المفسرين أنكر أن يكون المراد بالقتل في الآية إزهاق الأرواح؛ ففسر القتل في قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) ببخع النفس ولومها وشدة عتابها؛ قال الشيخ/ محمد أبو زهرة: "والطريق الذي بينه موسى عليه السلام هو قوله ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) أي: فابخعوها، واجعلوها مطية ذلولاً للعقل والإرادة، واقطعوا شهواتها، والتعبير عن ذلك بقتل النفس؛ لأن النفس الفاجرة الضالة إذا فطمت عن الشهوات كأنها قتلت... وقد أخذت الكثرة من المفسرين بظاهر اللفظ وهو القتل، ورووا في ذلك روايات عن بعض الصحابة لم يصح سندها، وبالأولى لم يصح كلام في نسبته إلى الرسول"[1].

وتفسير القتل ببخع النفس ولومها وشدة عتابها ذكره عدد من المفسرين؛ قال الزمخشري: "حمل قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) على الظاهر وهو البخع، وقيل: معناه قتل بعضهم بعضاً"[2].

وقال ابن عطية: "قال بعض الناس في قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) في هذه الآية معناه بالتوبة وإماتة عوارض النفوس من شهوة وتعنت وغضب"[3].

وقال أبو السعود: "﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) تماماً لتوبتكم بالبَخْع أو بقطع الشهوات، وقيل: أُمروا أن يقتُلَ بعضُهم بعضاً، وقيل: أُمر من لم يعبد العجل بقتل مَنْ عَبَدَه"[4].

وقال النسفي: "قيل: هو على الظاهر؛ وهو البخع. وقيل: معناه قتل بعضهم بعضاً. وقيل: أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العَبَدة فقتل سبعون ألفاً"[5].

وعليه فليس القول باستجابة بني إسرائيل لقتل أنفسهم توبة إلى الله تعالى من عبادة العجل موضع اتفاق بين المفسرين؛ لأن الآية لم تصرح به، والأصل النفي حتى يقوم الدليل على إثباته، والروايات الإسرائيلية لا تكفي لإثبات الاستجابة.

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز 105/1، والسمعاني، تفسير السمعاني المسمى "تفسير القرآن" 80/1، والزمخشري، تفسير الزمخشري المسمى "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" 143/1، وابن عطية، تفسير ابن عطية المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" 294/1، والرازي، تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب 87/3، وأبو حيان، تفسير أبي حيان المسمى "البحر المحيط" 637/1، وابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 96/1، والقرطبي، تفسير القرطبي المسمى "الجامع لأحكام القرآن" 401/1، والبقاعي، تفسير البقاعي المسمى "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" 374/1، وابن عادل، تفسير ابن عادل المسمى "اللباب في علوم الكتاب" 83/2، والقاسمي، تفسير القاسمي المسمى "محاسن التأويل" 127/2، والمراغي، تفسير المراغي 120/1، ورضا، تفسير المنار 320/1، وابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير 503/1، وقطب، في ظلال القرآن 71/1، والسعدي، تفسير ابن سعدي المسمى "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص 52، والشعراوي، تفسير الشعراوي 343/1، وغيرها.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير 234/1.

(2) الزمخشري، تفسير الزمخشري المسمى "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" 143/1.

(3) ابن عطية، تفسير ابن عطية المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" 294/1.

(4) أبو السعود، تفسير أبي السعود المسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" 132/1.

(5) النسفي، تفسير النسفي 48/1.

المبحث الثاني: إبطال القصة من وجوه متعددة

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: سياق الآيات التي وردت فيها القصة.

المسألة الثانية: عرض الآيات الواردة في عبادة العجل.

المسألة الثالثة: العلاقة بين عبادة العجل والأمر بذبح البقرة.

المسألة الأولى: سياق الآيات التي وردت فيها القصة

آية سورة البقرة التي فيها الحديث عن توبة الله على بني إسرائيل من عبادة العجل رقمها أربع وخمسون، وقد جاءت الآية في سياق آيات قبلها وبعدها تتحدث كلها عن تعداد نعم الله ﷻ على بني إسرائيل، وأنهم مع هذه النعم لم يستجيبوا وينقادوا لعبادة الله ﷻ وطاعته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة: 49-54)

فسياق الآيات في تعداد نعم الله عز وجل على بني إسرائيل؛ وهي:

الأولى: إنجاء بني إسرائيل من آل فرعون.

الثانية: نجاتهم من الغرق، وإغراق آل فرعون.

الثالثة: عفو الله - عز وجل - عنهم من عبادة العجل.

الرابعة: إيتاء نبي الله موسى ﷺ الكتاب والفرقان لهداية بني إسرائيل.

الخامسة: رفع الحكم عنهم بقتل أنفسهم تخفيفاً وتيسيراً؛ لأن السياق في مقام تعداد النعم، والأمر بقتل أنفسهم ليس كذلك فتكون النعمة في رفع الحكم، ويشهد له دخول حرف العطف الفاء في قوله تعالى﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) الدال على التعقيب، ويؤيده أن الله عز وجل أخبر في الآية (52) عن عفوه عنهم في عبادة العجل فكيف يأتي بعده الأمر بقتل أنفسهم؟ والله أعلم.

ومما يؤيد أن سياق الآيات في تعداد النعم تتابع ذكر النعم بعد آية التوبة عن عبادتهم العجل؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة: 55- 57).

فبعْثُ الله تعالى لهم، بعد موتهم بالصاعقة، لأجل شكر الله عز وجل، وكذا تظليل الغمام وإنزال المن والسلوى، فقابَلوا هذه النعم بظلم أنفسهم بمعصية الله عز وجل.

فتبين مما سبق أن سياق الآيات في ذكر نعم الله عز وجل على بني إسرائيل؛ ومنها التوبة عليهم برفع الحكم عنهم بقتل أنفسهم بعد الأمر به مباشرة. والله أعلم.

ولو كانوا قد تابوا بقتل أنفسهم فكيف يطلبون من نبي الله موسى عليه السلام رؤية الله جَهرة؟ ويجعلون الرؤية شرطاً لإيمانهم، هذا غاية الظلم والجَراءة على الله عز وجل، وعلى رسوله عليه السلام[1].

ولو سُلم جدلاً بوقوع القتل لأنفسهم توبة من عبادة العجل فكيف يتصور منهم الامتناع عن دخول القرية؛ وهو دخول لا قتال فيه؛ فهل يليق بقوم قتلوا أنفسهم توبة إلى الله ﷻ أن يمتنعوا عن دخول القرية؟

امتنعوا عن دخول القرية خوفًا على أنفسهم من القتل وهو غير محقق؛ فكيف يُقدِمون على قتل أنفسهم وهو محقق؟ قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (سورة البقرة: 58- 59).

المسألة الثانية: عرض الآيات الواردة في عبادة بني إسرائيل للعجل

قتل بني إسرائيل لأنفسهم توبة إلى الله عز وجل لو وقَعَ لكان حدثًا عظيمًا يستحق الإشادة والذكر والثناء في كل موضع يَرد فيه ذكر قصة العجل وعابديه، كما أثنى الله تعالى على الرجلين اللذين تكلمَا بالحق في قصة دخول القرية.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة المائدة: 23).

وعدد الآيات التي وردت فيها قصة عبادة العجل أو الإشارة إليها ثمان آيات؛ ليس في شيء منها ذكر قتلهم لأنفسهم، ولمَّا لم يأت مدح ولا ثناء عليهم في قصة عبادتهم العجل بأنهم استجابوا وبادروا لقتل أنفسهم دلَّ ذلك على أن القتل لم يقع، فيكون المراد بالتوبة في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) أي: رفع الحكم عنكم بقتل أنفسكم. والله أعلم.

وفيما يلي ذكر الآيات التي ورد فيها الحديث عن عبادة العجل:

الآية الأولى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة البقرة: 51- 52).

هذه الآية خبر عن عفو الله ﷻ عن بني إسرائيل في عبادة العجل؛ لعلهم يشكرون، وليس فيها حديث عن توبتهم من عبادة العجل بقتل أنفسهم، فلعل العفو عنهم بعد تبين ضلالهم باتخاذهم العجل كما تفيده آية سورة الأعراف ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: 149).

فعفو الله عنهم في عبادتهم العجل من جملة النعم التي أنعم الله عز وجل بها عليهم حيث إن الآية جاءت في سياق آيات قبلها وبعدها كلها تتحدث عن نعم الله ﷻ عليهم كما سبق بيانه.

(1) السعدي، تفسير ابن سعدي المسمى "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص 52.

الآية الثانية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة: 54).

هذه هي الآية الوحيدة التي استدل بها من ذهب إلى أن بني إسرائيل قتلوا أنفسهم توبة من عبادة العجل، وليس فيها ما يدل على ذلك بل ظاهرها كما سبق يدل على أن المقصود بقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) أي: رفع الحكم عنكم بقتل أنفسكم.

ومجيء التوبة بمعنى رفع الحكم ثابت في كتاب الله عز وجل؛ وسيأتي تفصيل ورود التوبة بمعنى رفع الحكم في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى.

الآية الثالثة والرابعة: ﴿وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (سورة البقرة: 92) هذه الآية نظير (الآية: 51) من سورة البقرة نفسها: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ فيها خبر عن وصف بني إسرائيل بالظلم بسبب اتخاذهم العجل، وليس فيها حديث عن توبتهم وندمهم وقتل أنفسهم، ثم جاءت (الآية: 93) بعدها مؤكدة محبتهم العجل وتعلقهم به، مما يدل على أنهم لم يتوبوا من عبادته؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة: 93).

وهذه هي الآية الرابعة وفيها تأكيد استحكام محبة العجل في قلوبهم، وأنهم لم يكونوا صادقين في ندمهم على عبادتهم العجل المفهوم من قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: 149) ولو وقعت منهم التوبة بقتل أنفسهم لدلَّ على سلامة قلوبهم من محبة العجل. والله أعلم.

ويؤكد أن قتل أنفسهم توبة من عبادة العجل لم يقع الآياتُ التي جاءت بعد هذه الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة: 94- 96) فدلت الآيات على كراهيتهم للموت وعجزهم عن تمنيه في سبيل الله فكيف يبادرون إليه وتحصل منهم تلك المقتلة العظيمة التي بلغت كما في الروايات الإسرائيلية أكثر من سبعين ألفاً؟

الآية الخامسة: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (سورة النساء: 153).

هذه الآية خبر عن عفو الله ﷻ عن أهل الكتاب في عبادتهم العجل، مقرونًا بحرف العطف (الفاء)، مما يدل على أن العفو جاء بعد عبادة العجل مباشرة، ولم تذكر التوبة بقتل أنفسهم مما يدل على أنها لم تقع.

ويستفاد من الآيات السابقة أن لفظ العفو قد تكرر مرتين في سورة البقرة الآية (52) وفي سورة النساء الآية (153)، والعفو في صفات الله تعالى تكرم وتفضل بدون فعل من العبد؛ يقال: "عَفَوْتَ عن ذنبه، إذا

تركتَه ولم تعاقبْه"[1]. قال الراغب الأصفهاني: "العفو هو التجافي عن الذنب؛ قال تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الشورى: 40) ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (سورة البقرة: 237) ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة البقرة: 52) ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ (سورة التوبة: 66) ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ (سورة آل عمران: 159)[2]".

وعليه فهناك فرق بين المغفرة والعفو؛ فالغفران يقتضي إسقاط العقاب؛ وإسقاط العقاب هو إيجاب الثواب؛ فلا يستحق الغفران إلا المؤمن المستحق للثواب، وهذا لا يستعمل إلا في حق الله تعالى فيقال: غفر الله لك، ولا يقال غفر زيد لك إلا شاذا قليلا، والشاهد على شذوذه أنه لا يتصرف في صفات العبد كما يتصرف في صفات الله تعالى، ألا ترى أنه يقال: استغفرت الله تعالى، ولا يقال استغفرت زيداً. والعفو: يقتضي إسقاط اللوم والذم ولا يقتضي إيجاب الثواب، ولهذا يستعمل في العبد فيقال: عفا زيد عن عمرو وإذا عفا عنه لم يجب عليه إثابته، إلا أن العفو والغفران لما تقارب معناهما تداخلا واستعملا في صفات الله جل اسمه على وجه واحد؛ فيقال: عفا الله عنه وغفر له بمعنى واحد، وما تعدى به اللفظان يدل على ما قلنا؛ وذلك أنك تقول عفا عنه فيقتضي ذلك إزالة شيء عنه، وتقول غفر له فيقتضي ذلك إثبات شيء له"[3].

قال الأزهري: "قال الليث: العفو عفو الله عن خَلْقه. واللّهُ العَفُوّ الغفور. قال: وكل من استحق عقوبة فتركتها فقد عفوتَ عنه"[4]. وقال ابن فارس: "العَفْو: عَفْو الله تعالى عن خَلْقه، وذلك تركُه إيّاهم فلا يعاقبُهم، فَضْلاً منه"[5].

الآية السادسة: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ (سورة الأعراف: 148).

هذه الآية خبر عن اتخاذ قوم موسى عليه السلام العجل مع أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، وفيها وصفهم بالظلم بسببه ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: 149) قال ابن جرير: "وعنى بقوله: ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم.. قالوا تائبين إلى الله منيبين إليه من كفرهم به: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾"[6].

فهذه الآية صريحة الدلالة في أن عفو الله عنهم في عبادتهم العجل كان بعد اعترافهم بخطئهم،

(1) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية 483/1.

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن 339/1.

(3) انظر: العسكري، الفروق اللغوية، ص 195.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة 385/1.

(5) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة 56/4.

(6) الطبري، تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" 119/13.

وطلبهم الرحمة والمغفرة من الله عز وجل، وليس فيها ما يدل على أن توبة الله عليهم إنما وقعت بعد قتل أنفسهم؛ حيث إن الأمر بقتل أنفسهم لم يأت إلا في آية واحدة! فكيف يقال بأن الله تاب عليهم بعد قتل أنفسهم؟ وهو قدر زائد على سياق الآية. والله أعلم.

الآية السابعة: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاء وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ. وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيم﴾ (سورة الأعراف: 150- 153).

في هذه الآيات وعيد ظاهر على من اتخذ العجل باستحقاقه غضب الله عليه، والذلة الدائمة في الحياة الدنيا إلا من تاب فإن الله يتوب عليه مهما كان فعله، ولعل التوبة هنا تفسر بما سبق ذكره في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين﴾ (سورة الأعراف: 149) وليس فيها حديث عن قتل أنفسهم توبة إلى الله عز وجل من عبادة العجل.

الآية الثامنة: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ. أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾ (سورة طه: 87- 89).

في سورة طه حديث مُفصَّل عن عبادة بني إسرائيل للعجل؛ كيف بدأت عن طريق السامري، وموقف نبي الله هارون عليه السلام من عبادتهم للعجل، ومعاتبة نبي الله موسى عليه السلام له، ومساءلته للسامري عن سبب ما فعل، ثم إحراقه للعجل، وليس في سورة طه حديث عن توبة بني إسرائيل من عبادة العجل، ولا عن قتل أنفسهم؟ فلو وقعت لناسب ذكرُها، ومدحُهم والثناء عليهم بها. والله أعلم.

المسألة الثالثة: العلاقة بين عبادة العجل والأمر بذبح البقرة

الآيات الواردة في أمر الله عز وجل نبينا موسى عليه السلام بني إسرائيل بذبح بقرة جاءت بعد الآية الواردة في أمر نبي الله موسى عليه السلام قومه بقتل أنفسهم لاتخاذهم العجل؛ فآية الأمر بقتل أنفسهم توبة من عبادة العجل رقمها أربع وخمسون، وآيات الأمر بذبح بقرة بدأت من الآية السابعة والستين من سورة البقرة، ولعلَّ الحكمة في هذا الترتيب - والله أعلم - التلازم بين الأمر بذبح البقرة وعبادة العجل؛ وذلك من جهة أن الأمر بذبح البقرة أريد منه إعلام نبي الله موسى عليه السلام أن قومك لن يستجيبوا لما أمرتهم به من قتل أنفسهم توبة إلى الله من عبادة العجل؛ لأن السَماع والعصيان هو الحال المناسب لبني إسرائيل، ويشهد لهذا الأصل قوله تعالى في سورة البقرة نفسها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِين﴾ (سورة البقرة: 93)، ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ (سورة الأعراف: 171). غاية التمرد والعصيان.. لما ظهر استكبار بني إسرائيل على أوامر الله، وسخريتهم بها رفع الله عز وجل جبل الطور فوق رؤوسهم وخوَّفهم بإيقاعه عليهم؛ ورؤية آية عظيمة مثل هذه الآية يورث الخوف والاستجابة إلا أن حال بني إسرائيل عجيب؛ لم

يطيعوا ولم يستجيبوا بل ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ سمعنا قولك وعصينا أمرك[1]؛ لماذا؟ ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾. فهل يناسب بعد هذا أن يكونوا قد تابوا من عبادة العجل بقتل أنفسهم طاعة لأمر نبي الله موسى عليه السلام؟

فيظهر بعد هذا كله أن أمر الله عز وجل نبينا موسى عليه السلام أن يأمر قومه بذبح بقرة لعل المقصود منه إعلام نبي الله موسى عليه السلام أن قومك لم يستجيبوا لك بذبح بقرة فكيف تريد منهم أن يستجيبوا لما أمرتهم به من قتل أنفسهم؟

وفي قصة ذبح البقرة دليل على أن اليهود يُحكِّمون عقولهم وأهواءهم، ولا يستجيبون لأمر الله، ولا يسلِّمون لحكمه، فتراهم يسألون عن الحكمة لأجل أن يحددوا موقفهم من الأمر هل يستجيبون له أو يتركونه؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة البقرة: 67) فكان جوابهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ لأنهم لم يعقلوا حكمة أمرهم بذبح البقرة.

ولعلنا نستفيد من هذا أنه لم يكن ثمة سبب متقدم للأمر بذبح البقرة؛ بل كان الأمر بذبحها أمرًا تعبديًا محضًا ليظهر لنبي الله موسى عليه السلام العصيان من قبل هؤلاء القوم، وإلا لو كانوا مؤمنين لبادروا إلى الاستجابة والامتثال دون تردد، كما هو حال المؤمنين الصادقين فإنهم يقولون سمعنا وأطعنا.

ولننظر إلى قصة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه رأى في المنام أنه يذبح ابنه؛ ورؤيا الأنبياء حق؛ فاستجاب لهذه الرؤيا فقال لابنه إسماعيل عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الصافات: 102-105).

ففاز نبي الله إبراهيم عليه السلام لمَّا أسلم وانقاد إلى أمر الله تعالى دون تردد، وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾ (سورة النور: 51).

وأما اليهود فقد قال الله تعالى في وصفهم: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا﴾ (سورة النساء: 46).

والشاهد من هذا أن الأمر بذبح البقرة لم يكن له سبب متقدم ظاهر؛ فيحتمل - والله تعالى أعلم- أن يكون الأمر بذلك لأجل الاختبار في الطاعة والامتثال، ثم لما ذبحوها بعد التردد والتعنت وكثرة السؤال ظهرت لهم الحكمة من هذا الأمر حيث أُمروا أن يضربوا القتيل الذي لم يعرف قاتله ببعض البقرة. قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُون. وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى

(1) الطبري، تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" 263/2.

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة البقرة: 71- 73) وعلى هذا فلا حاجة إلى القول بأن هناك تقديما وتأخيرا في سياق الآيات؛ فالقتيل الذي لم يُعرف قاتله كان أولاً، والأمر بذبح البقرة جاء ثانيًا[1]، والروايات التي اعتمد عليها القائلون بذلك قال عنها الحافظ ابن كثير: "هذه السياقات عن عبَيدة وأبي العالية والسُّدِّي وغيرهم فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها، ولكن لا تصدَّق ولا تكذب، فلهذا لا يُعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا"[2].

وعليه فتبقى الآيات مرتبة ترتيبًا تاريخيًا حسب سياقها في السورة؛ فالأمر بذبح البقرة وقع أولاً، ثم الأمر بضرب القتيل ببعض البقرة وقع ثانيًا كما سبق بيانه، والله أعلم.

وذم اليهود في قصة البقرة مقصود لذاته لذا نجد أن سورة البقرة على طولها وعظمتها حملت اسم هذه القصة (البقرة) لتذكير المؤمنين بوجوب الحذر من أعداء الله الكافرين اليهود، وترك التشبه بهم فيما استحقوا بسببه الغضب؛ وهو التردد في الطاعة والاستجابة، وسببه ضعف الإيمان بالغيب؛ المقتضي التسليم للوحي.

ويشهد لهذا حديث أبي هريرة ﷺ قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾ (سورة البقرة: 284) اشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ثم بَركوا على الركب؛ فقالوا: أَيْ رسول الله كُلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والجهاد والصيام والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم وذلَّت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى في إثْرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فلمَّا فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله ﷻ: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، قال: نعم، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم[3].

المبحث الثالث: ورود التوبة بمعنى رفع الحكم والتيسير والعفو

مستند القائلين بأن بني إسرائيل قد استجابوا لما أمرهم به نبي الله موسى عليه السلام من قتل أنفسهم توبة إلى الله من عبادة العجل لفظ التوبة الوارد في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ

(1) انظر: الطبري، تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" 81/2، وابن عطية، تفسير ابن عطية المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" 339/1، والرازي، تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب 122/3.

(2) ابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 144/1.

(3) أخرجه مسلم: 115/1 كتاب الإيمان رقم: 199.

فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم﴾ (سورة البقرة: 54) قالوا: يلزم من ذكر توبة الله عليهم أنهم استجابوا ففعلوا ما أمروا به.

وهذا اللازم احتمال لم يقم الدليل عليه فيبقى أن التوبة في الآية محتملة لمعنى آخر؛ وهو رفع الحكم والتيسير والتخفيف؛ فالجزم بأنهم استجابوا لمجرد ورود لفظ التوبة في الآية لا يكفي، والاحتجاج بالروايات الإسرائيلية لإثبات الاستجابة لا يصلح؛ لأنها في نفسها باطلة.

فتوبة الله تحتمل معاني متعددة؛ قال الفيروزأبادي: "تابَ الله عليه: وفَّقَه للتَّوبةِ، أو رجَعَ به من التَّشْدِيد إلى التَّخْفيفِ، أو رَجَعَ عليه بِفَضْلِهِ وقبوله، وهو تَوَّابٌ على عبادِه"[1].

وقد فصَّل هذه المعاني قبله الأزهري في تهذيب اللغة فقال: "أصل تَابَ: عاد إلى الله ورجع وأناب، وتابَ الله عليه؛ أي عاد عليه بالمغفرة، وقال جل وعز: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ (سورة النور: 31) أي: عودوا إلى طاعتي وأنيبوا، والله التوّاب يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه، واستتبتُ فلاناً: أي عَرَضْتُ عليه التوبةَ مما اقترف، أي الرجوع والنَّدم على ما فَرَط منه".. وبعد أن بَيَّن أصل التوبة ذكر أن من معاني التوبة: الرجوع من التشديد إلى التخفيف، والرجوع من الحظر إلى الإباحة؛ فقال: "وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة المزمل: 20) أي: رجع بكم إلى التخفيف، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ (سورة البقرة: 187) أي: أباح لكم ما كان حُظِر عليكم ﴿فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ (سورة البقرة: 54) أي: ارجعوا إلى خالقكم. والتوَّاب، من صفات الله تعالى: هو الذي يتوب على عباده، والتوَّاب من الناس: هو الذي يتوب إلى ربه"[2].

وعند التأمل في الآية نجد أن الأقرب في المراد بالتوبة في قوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عاد عليكم بالعفو والتخفيف؛ حيث يتناسب هذا المعنى مع سياق الآيات، وسابقها ولاحقها؛ لأن اللائق بأحوال بني إسرائيل ترك الاستجابة لما أُمِروا به من قتل أنفسهم حيث إنهم تركوا فعل ما هو أقل منه شأناً كدخول القرية وذبح البقرة! فيكون رفع الحكم عنهم بقتل أنفسهم من جملة النعم التي أنعم الله عز وجل عليهم بها، وأمرهم بتذكرها؛ والآية في سورة البقرة التي ورد فيها أمر بني إسرائيل بتذكر نعم الله عليهم في ثلاث آيات منها؛ وهي:

1. ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَايَ فَارْهَبُون﴾ (سورة البقرة: 40).
2. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (سورة البقرة: 47- 48).
3. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ

(1) الفيروزأبادي، القاموس المحيط، ص 79 مادة (تاب).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة 332/14، مادة (تاب) ، ونقله عنه ابن منظور في لسان العرب 233/1، مادة (توب).

وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (سورة البقرة: 122- 123).

ويشهد لكون المراد بالتوبة الواردة في عبادة بني إسرائيل للعجل رفع الحكم والتخفيف ورود التوبة بهذا المعنى في كتاب الله عز وجل؛ فمن ذلك:

أولاً: قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة: 187).

عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَحَضَرَ الإِفْطَارُ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلا يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا أَعِنْدَكِ طَعَامٌ قَالَتْ لا وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ خَيْبَةً لَكَ فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾[1].

فدل حديث البراء ﷺ على أن المراد بالتوبة في الآية رفع الحكم والتيسير والتخفيف؛ قال الحافظ ابن كثير: "هذه رُخْصةٌ من الله تعالى للمسلمين، ورَفْعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مَشَقة كبيرة"[2].

فهذا يدل على أن لفظ التوبة يرد في كتاب الله تعالى بمعنى رفع الحكم والتيسير والعفو؛ وقد نص على هذا عدد من المفسرين؛ قال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ "أي: قَبِل توبتكم حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور، وقيل: معناه خفف عنكم بالرخصة والإباحة كقوله تعالى﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة المزمل: 20) ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ﴾ (سورة النساء: 92) ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ (سورة التوبة: 117) معناه كله التخفيف"[3].

وقال ابن عطية: "ويحتمل أن يريد عفا عما كان ألزمكم من اجتناب النساء فيما يؤتنف، بمعنى تركه لكم، كما تقول: شيء معفو عنه أي متروك"[4].

وقال الشوكاني في تفسير قول الله عز وجل ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: "يحتمل معنيين: أحدهما قبول التوبة من

(1) أخرجه البخاري، كتاب الصيام، باب: قول الله جل ذكره {أحل لكم ليلة الصيام...} رقم: 1915. انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري 154/4.

(2) ابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 226/1.

(3) أبو حيان، تفسير أبي حيان المسمى "البحر المحيط" 56/2.

(4) ابن عطية، تفسير ابن عطية المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" 124/2.

خيانتهم لأنفسهم، والآخر التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة؛ كقوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة المزمل: 20) يعني: خفف عنكم، وكقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ﴾ (سورة النساء: 92) يعني تخفيفاً، وكذا قوله ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ يحتمل العفو من الذنب، ويحتمل التوسعة والتسهيل"[1].

وقال ابن سعدي في تفسير التوبة في الآية: "﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته- موجباً للإثم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما سلف من التخوُّن"[2].

ثانياً: من الأدلة على ورود التوبة بمعنى رفع الحكم والنسخ والتخفيف قول الله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة المزمل: 20).

فقوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فعاد عليكم بالعفو والتخفيف[3].

قال القرطبي: "قوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فعاد عليكم بالعفو، وهذا يدل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به. وقيل: أي فتاب عليكم من فرض القيام إذْ عجزتم. وأصل التوبة الرجوع كما تقدّم؛ فالمعنى: رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عُسْر إلى يُسْر"[4].

قال الألوسي في قوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: "أي بالترخيص في ترك القيام المقدر، ورفع التبعة عنكم في تركه، فالكلام على الاستعارة؛ حيث شبه الترخيص بقبول التوبة في رفع التبعة واستعمل اللفظ الشائع في المشبه به في المشبه كما في قوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ (سورة البقرة: 187) وزعم بعضهم أنه على ما يتبادر منه فقال: فيه دليل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به وليس بشيء"[5].

وقال الشوكاني في قوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: "أي: فعاد عليكم بالعفو، ورخص لكم في ترك القيام"[6]. وقال ابن الجوزي: "أي: عاد عليكم بالمغفرة والتخفيف"[7]. وقال ابن عادل: "أي: فعاد عليكم بالعفو. وهذا يدل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به. وقيل: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ من فرض القيام أو عن

(1) الشوكاني، تفسير الشوكاني المسمى "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير" 186/1.

(2) السعدي، تفسير ابن سعدي المسمى "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص 87.

(3) البغوي، تفسير البغوي المسمى "معالم التنزيل" 257/8.

(4) القرطبي، تفسير القرطبي المسمى "الجامع لأحكام القرآن" 53/19.

(5) الألوسي، تفسير الألوسي المسمى "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" 138/10.

(6) الشوكاني، تفسير الشوكاني المسمى "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير" 321/5.

(7) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير 396/8، ومثله في (المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص 243): {ت ث} رجع بكم إلى التخفيف.

عجزكم، وأصل التوبة الرجوع - كما تقدم - فالمعنى: رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى إيسار، وإنما أمروا بحفظ الأوقات بالتحري، فخفف عنهم ذلك التحري"[1].

وقال البقاعي: "قوله تعالى: ﴿فَتَابَ﴾ أي: فتسبب عن هذا العلم أنه سبحانه رجع بالنسخ عما كان أوجب ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالترخيص لكم في ترك القيام المقدر أول السورة، أي رفع التبعة عنكم في ترك القيام على ذلك التقدير الذي قدره كما رفع عن التائب، وكأنه سماه توبة وإن لم يكن ثَمَّ معصية إشارة إلى أنه من شأنه لثقله أن يجر إلى المعصية"[2].

فهذا البيان لكلمة التوبة وأن معناها في الآية الرجوع إلى التخفيف والتيسير يزيد آية سورة البقرة بياناً ووضوحاً في حمل معنى التوبة فيها على نسخ الحكم ورفعه تخفيفاً على بني إسرائيل ورحمة بهم فهو من جملة نعم الله عليهم وما أكثرها.

والذي يظهر - والله أعلم- أن الروايات الإسرائيلية الواردة في استجابة بني إسرائيل ووقوع القتل منهم كان لها تأثير واضح في كلام المفسرين حول الآية. والله أعلم.

ثالثاً: ورود نسخ تقديم الصدقة بين يدي نبينا ﷺ عند إرادة مناجاته بلفظ التوبة في قول الله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم. أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(سورة المجادلة: 12-13).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ﷺ فلما قال ذلك صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق[3].

وقد صرح كثير من المفسرين بأن لفظ التوبة في الآية معناه نسخ الحكم والتخفيف والتيسير؛ قال الألوسي في قول الله تعالى: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ "بأن رخص لكم المناجاة من غير تقديم صدقة"[4].

وقال أبو حيان في قول الله تعالى: "﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ عذركم ورخص لكم

(1) ابن عادل، تفسير ابن عادل المسمى "اللباب في علوم الكتاب" 483/19.

(2) البقاعي، تفسير البقاعي المسمى "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" 31/21. وقد ذكر أن المراد بالتوبة رفع الحكم والتيسير كثير من المفسرين. انظر: الرازي، تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب 186/30، والبيضاوي، تفسير البيضاوي المسمى "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" 462/3، والسعدي، تفسير ابن سعدي المسمى "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص 894. وغيرهم.

(3) ابن كثير، تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم" 350/4.

(4) الألوسي، تفسير الألوسي المسمى "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" 31/10.

في أن لا تفعلوا فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وأفعال الطاعات"[1].

وقال ابن عادل: "المعنى: فإن لم تفعلوا ما أمرتم به ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ونسخ الله ذلك الحكم، ورخص لكم في ألاَّ تفرطوا في الصَّلاة والزكاة، وسائر الطاعات، وهذا خطاب لمن وجَدَ ما يتصدق به، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل"[2].

واستبعد البرسوي في تفسيره حمل التوبة في الآية على معناها الحقيقي؛ فقال في قوله تعالى: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ "بأن رخص لكم في ألا تفعلوه وأسقط عنكم تقديم الصدقة؛ وذلك لأنه لا وجه لحملها على قبول التوبة حقيقة إذ لم يقع منهم التقصير في حق هذا الحكم بأن وقعت المناجاة بلا تصدق"[3].

وصرح ابن سعدي بلفظ ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ "أي: عفا لكم عن ذلك"[4].

فتبين من الآيات الواردة في التوبة أن لفظ التوبة يأتي بعد فعل من العبد بندم واستغفار وإصلاح، ويأتي لفظ التوبة أحياناً رفعاً للحكم وتخفيفاً من الله عز وجل، ولا يلزم حدوث ندم من العبد وتوبة منه؛ فمن الأول قوله تعالى:

1. ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة: 37) فسبق التوبة ندم واستغفار ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: 23).
2. ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة المائدة: 38- 39).
3. ﴿وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام: 54) فوقعت المغفرة والرحمة بعد فعل منهم وهو التوبة.
4. ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الأعراف: 153).
5. ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة التوبة: 118).
6. ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النحل: 119).

ومن الثاني؛ وهو التوبة بمعنى التخفيف والرحمة والعفو دون فعل من العبد قوله تعالى:

1. ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ

(1) أبو حيان، تفسير أبي حيان المسمى "البحر المحيط" 235/8.

(2) ابن عادل، تفسير ابن عادل المسمى "اللباب في علوم الكتاب" 551/18.

(3) البرسوي، تفسير البرسوي المسمى "روح البيان" 406/9.

(4) السعدي، تفسير ابن سعدي المسمى "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، ص 847.

تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة: 187).

2. ﴿وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة: 71).

فلا يلزم من ذكر لفظ التوبة أنهم تابوا وندموا بدليل أنهم رجعوا لما كانوا عليه؛ وسياق الآية في سورة المائدة يدل على عظم ما تأصل في بني إسرائيل من الكفر والتكذيب والعناد، وأعظم ذلك ما ذكر في الآية التي قبلها مباشرة: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة المائدة: 70- 71).

ومع ذلك أدركهم الله عز وجل برحمته، وتجاوز عنهم وتاب عليهم لعلهم يتوبون ويرجعون، ولكنهم حسبوا أنهم لا يتعرضون للفتنة بسبب صنيعهم فعموا وصموا كثير منهم.

وقد وقف بعض المفسرين عند كلمة التوبة فظن حصول فعل منهم استحقوا معه توبة الله[1]، وهذا المعنى لم يذكر في الآية، ولا يدل عليه السياق فالأقرب أن يكون المراد بالتوبة - والله أعلم - العفو عنهم منة من الله عز وجل عليهم وتفضلاً.

قال ابن الجوزي في تفسير قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة المائدة: 71): "فيه قولان:

أحدهما: رفع عنهم البلاء. قاله مقاتل. وقال غيره: هو ظفرهم بالأعداء، وذلك مذكور في قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الإسراء: 6).

والثاني: أن معنى ﴿ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة المائدة: 71): أرسل إليهم محمداً يُعلمهم أن الله قد تاب عليهم إن آمنوا وصدقوا. قاله الزجاج"[2].

وقال السمرقندي: "ثم قال تعالى ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ يعني: عموا عن الحق، وصمّوا عن الهدى، فلم يسمعوه. ﴿ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: تجاوز عنهم، ورفع عنهم البلاء، فلم يتوبوا"[3].

قال ابن عاشور: "وقد استفيد من قوله ﴿أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وقوله ﴿ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أنّهم قد أصابتهم الفتنة بعد ذلك العمى والصمم وما نشأ عنها عقوبة لهم، وأنّ الله لمّا تاب عليهم رفع عنهم الفتنة ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ أي عادوا إلى ضلالهم القديم وعملهم الذّميم، لأنّهم مصرّون على حُسبان ألا تكون فتنة فأصابتهم فتنة أخرى"[4].

وقد فصل الشنقيطي القول في الآية تفصيلاً حسناً فقال: "ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن بني إسرائيل عموا وصموا مرتين، تتخللهما توبة مِن الله عليهم، وبيَّن تفصيل ذلك في قوله ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

(1) منهم البيضاوي حيث قال في قول الله تعالى {ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ} "أي: ثم تابوا فتاب الله عليهم". البيضاوي، تفسير البيضاوي المسمى "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" 453/1.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير 401/2، وما نقله عن الزجاج من "معاني القرآن" 195/2.

(3) السمرقندي، تفسير السمرقندي 451/1.

(4) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير 277/6.

فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (سورة الإسراء: 4) فبين جزاء عَماهم وصَمَمِهم في المرة الأولى بقوله: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولا﴾ (سورة الإسراء: 5) وبين جَزاء عماهم وصَمَمِهم في المرة الآخرة بقوله: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ (سورة الإسراء: 7) وبين التوبة التي بينهما بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ (سورة الإسراء: 6) ثم بين أنهم إن عادوا إلى الإفساد عاد إلى الانتقام منهم بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا﴾ (سورة الإسراء: 8) فعادوا إلى الإفساد بتكذيبه ﷺ، وكتمِ صفاته التي في التوراة، فعاد الله إلى الانتقام منهم، فسلط عليهم نبيه ﷺ فذبح مقاتلة بني قريظة، وسبى نساءهم وذراريهم، وأجلى بني قينقاع، وبني النضير، كما ذكر تعالى طرفاً من ذلك في سورة الحشر، وهذا البيان الذي ذكرنا في هذه الآية ذكره بعض المفسرين، وكثير منهم لم يذكره، ولكن ظاهر القرآن يقتضيه؛ لأن السياق في ذكر أفعالهم القبيحة الماضية من قتل الرسل وتكذيبهم، إذ قبل الآية المذكورة ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (سورة المائدة: 70).

3. ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾"[1] (سورة التوبة: 117).

قال ابن جرير في قوله: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾: "أي: من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: عن الحق، ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه. ﴿ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾"[2].

وقال ابن عادل في بيان معنى التوبة في الآية: "﴿لَقَد تَّابَ اللهُ﴾: تجاوز وصفح. ومعنى توبته على النبيِّ ﷺ: مؤاخذته بإذنه للمنافقين في التخلُّف، فقال: ﴿عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (سورة التوبة: 43). وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلُّفِ عنه. وقيل: توبةُ الله عليهم استنقاذهم من شدَّةِ العسرةِ. وقيل: خلاصهم من نكايةِ العدوِّ. وعبَّر عن ذلك بالتوبة - وإن خرج عن عرفها- لوجود معنى التَّوبة فيه، وهو الرُّجُوع إلى الحالة الأولى. وقيل: افتتح الكلام به؛ لأنَّه كان سبب توبتهم، فذكره معهم؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ (سورة الأنفال: 41)"[3].

وزاد ابن عاشور معنى التوبة في الآية إيضاحاً وبياناً في أنه لا يلزم من ذكر لفظ التوبة وقوع التوبة منهم

(1) الشنقيطي، تفسير الشنقيطي المسمى "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" 139/2.

(2) الطبري، تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" 49/12.

(3) ابن عادل، تفسير ابن عادل المسمى "اللباب في علوم الكتاب" 226/10.

فقال: "ومعنى تاب عليه: غفر له؛ أي لم يؤاخذه بالذنوب سواء كان مذنباً أم لم يكنه، كقوله تعالى ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة المزمل: 20) أي فغفر لكم وتجاوز عن تقصيركم وليس هنالك ذنب ولا توبة. فمعنى التوبة على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه أن الله لا يؤاخذهم بما قد يحسبون أنه يسبب مؤاخذة كقول النبي ﷺ (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)"[1].

الخاتمة

أهم النتائج التي تم التوصل إليها:

1. قصة قتل بني إسرائيل لأنفسهم توبة إلى الله من عبادة العجل من الأخبار الإسرائيلية التي لم يقم الدليل على ثبوتها فتبقى في دائرة الاحتمال والظن.
2. الأليق بحال بني إسرائيل أنهم لم يستجيبوا؛ لأنه طلب منهم ما هو أقل من ذلك مثل دخول القرية، وذبح البقرة فلم يستجيبوا مباشرة.
3. من معاني التوبة الواردة في كتاب الله رفع الحكم والتخفيف والتيسير، ولا يلزم حدوث توبة من العبد.
4. يرد لفظ التوبة في القرآن الكريم بمعنى قبول التوبة من الله تعالى بعد ندم العبد واستغفاره ورجوعه لله عز وجل، كما يرد لفظ التوبة بمعنى رفع الحكم والتخفيف والتيسير.
5. ورد الحديث عن عبادة العجل في كتاب الله تعالى في ثمانية مواضع لم يرد التصريح باستجابتهم لما أُمروا به من قتل أنفسهم ولا في آية واحدة.
6. الأصل الأخذ بظاهر القرآن الكريم في الأخبار الماضية، وما سكت عنه القرآن فلا يُجزم به بناءً على احتماله وتوقعه.
7. لفظ التوبة الوارد في عبادة بني إسرائيل للعجل يراد به رفع الحكم والتيسير والتخفيف؛ لأن قتل أنفسهم لم يثبت وقوعه، وسياق الآيات يشهد لكونهم لم يستجيبوا.
8. دلت آية سورة الأعراف على صدور فعل من بني إسرائيل يُظهر ندمهم على عبادتهم العجل فلعله سبب عفو الله عنهم وليس سبب التوبة قتل أنفسهم؛ لأن ذلك لم يقع، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: 149).
9. الأصل في الأخبار الإسرائيلية التوقف فيها فلا تصدق ولا تكذب فإن دل الدليل على صحتها قبلت، وإن دل الدليل على بطلانها ردت.
10. ما ورد من الروايات الإسرائيلية مخالفاً لظاهر الآيات فيجب رده، ويُحذر من تفسير الآية به.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

(1) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير 49/11. والحديث أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب: ما جاء في المتأولين رقم: 6939. انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري 317/12. وأخرجه مسلم رقم: 2494، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل حاطب وأهل بدر. النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج المسمى "صحيح مسلم بشرح النووي" 45/16.

المراجع

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. 1385هـ. زاد المسير في علم التفسير. الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبدالحليم الحراني. جمع وترتيب: النجدي، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي؛ والنجدي، محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي الحنبلي. 1416هـ. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية. بدون رقم الطبعة، نشر وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي الشافعي. 1407هـ. فتح الباري شرح صحيح البخاري. الطبعة الأولى، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر.

ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي. تحقيق: عبد الموجود، عادل أحمد؛ ومعوض، علي محمد. شارك في تحقيقه: حسن، محمد سعد رمضان؛ وحرب، محمد المتولي الدسوقي. 1419هـ/1998م. تفسير ابن عادل المسمى "اللباب في علوم الكتاب". الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن عاشور، محمد الطاهر. 1984م. تفسير التحرير والتنوير. دون رقم الطبعة، الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن عطية، أبو محمد عبدالحق. تحقيق: الفاروق، الرحالي؛ والأنصاري، عبدالله بن إبراهيم. 1398هـ/1977م. تفسير ابن عطية المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز". الطبعة الأولى، مؤسسة دار العلوم، القاهرة، مصر.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: هارون، عبد السلام محمد. 1399هـ. معجم مقاييس اللغة. بدون رقم الطبعة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. 1415هـ/1995م. تفسير ابن كثير المسمى "تفسير القرآن العظيم". الطبعة السابعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. د.ت. لسان العرب. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

أبو السعود، ابن محمد العمادي الحنفي. د.ت. تفسير أبي السعود المسمى "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي. تحقيق: عبد الموجود، عادل أحمد؛ ومعوض، علي محمد. شارك في تحقيقه: النوتي، زكريا عبد المجيد؛ والجمل، أحمد النجولي. تقريظ: الفرماوي، عبد الحي. 1413هـ/1993م. تفسير أبي حيان المسمى "البحر المحيط". الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث الأزدي. 1389هـ. سنن أبي داود. بدون رقم الطبعة، دار الحديث، بيروت، لبنان.

أبو زهرة، محمد. د.ت. زهرة التفاسير. بدون رقم الطبعة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.

أبو شهبة، محمد محمد. 1408هـ. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير. الطبعة الرابعة، مكتبة السنة، القاهرة، مصر.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. د.ت. تهذيب اللغة. دون رقم الطبعة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر.

الألباني، محمد ناصر الدين. د.ت. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. بدون رقم الطبعة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، د.ت. تفسير الألوسي المسمى "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني". بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

البرسوي، إسماعيل حقي. د.ت. تفسير البرسوي المسمى "روح البيان". بدون رقم الطبعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود. تحقيق: النمر، محمد عبدالله؛ وضميرية، عثمان جمعة؛ والحرش، سليمان مسلم. 1414هـ. تفسير البغوي المسمى "معالم التنزيل". الطبعة الثانية، دار طيبة، المملكة العربية السعودية.

البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر. تحقيق: المهدي، عبد الرزاق غالب. 1413هـ/1992م. تفسير البقاعي المسمى "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". الطبعة الثانية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر.

البيضاوي، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي. تحقيق: حسن حلاق، محمد صبحي؛ والأطرش، محمود أحمد. 1421هـ/2000م. تفسير البيضاوي المسمى "أنوار التنزيل وأسرار التأويل". الطبعة الأولى، دار الرشيد، دمشق، سوريا، ومؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان.

الجوهري، إسماعيل بن حماد. تحقيق: عطّار، أحمد عبد الغفور. 1407هـ. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

الذهبي، محمد حسين. د.ت. التفسير والمفسرون. الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت، لبنان.

الرازي، فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر الشهير بخطيب الري. 1405هـ/1985م. تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب. الطبعة الثالثة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. تحقيق: داوودي، صفوان عدنان. 1423هـ. المفردات في غريب القرآن. الطبعة الثالثة، دار القلم، دمشق، سوريا.

رضا، محمد رشيد. د.ت. تفسير المنار. الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، لبنان.

الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري. تحقيق: شلبي، عبدالجليل عبده. 1414هـ. معاني القرآن وإعرابه. الطبعة الأولى، عالم الكتب، دار الحديث، القاهرة، مصر.

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. تصحيح: شاهين، محمد عبدالسلام. 1415هـ/1995م. تفسير الزمخشري المسمى "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل". الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

السعدي، عبدالرحمن بن ناصر. تحقيق: اللويحق، عبدالرحمن بن معلى. 1423هـ/2002م. تفسير ابن سعدي المسمى "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد. 1413هـ. تفسير السمرقندي. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

السمعاني، أبو المظفر. تحقيق: ابن إبراهيم، ابن تميم ياسر؛ وابن عباس، أبي بلال غنيم. 1418هـ/1997م. تفسير السمعاني المسمى "تفسير القرآن". الطبعة الأولى، دار الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الشعراوي، محمد متولي. د.ت. تفسير الشعراوي. بدون رقم الطبعة، مطبعة أخبار اليوم، القاهرة، مصر.

الشنقيطي، الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني. 1426هـ. تفسير الشنقيطي المسمى "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن". الطبعة الأولى، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، 1401هـ. تفسير الشوكاني المسمى "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير". بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تحقيق: التركي، عبدالله بن عبدالمحسن. 1422هـ/2001م. تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن". الطبعة الأولى، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر.

العسكري، أبو هلال. عناية: القدسي، حسام الدين. 1353هـ. الفروق اللغوية. بدون رقم الطبعة، مكتبة القدسي، القاهرة، مصر.

الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب. 1407هـ. القاموس المحيط. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

القاسمي، محمد جمال الدين. تعليق: عبدالباقي، محمد فؤاد. د.ت. تفسير القاسمي المسمى "محاسن التأويل". بدون رقم الطبعة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر.

القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر. 1405هـ/1985م. تفسير القرطبي المسمى "الجامع لأحكام القرآن". بدون رقم الطبعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

قطب، سيد. 1408هـ/1988م. في ظلال القرآن. الطبعة الخامسة عشرة، دار الشروق، بيروت، لبنان.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. تعليق: ابن عبدالرحيم، السيد بن عبدالمقصود. د.ت. تفسير الماوردي المسمى "النكت والعيون". بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

المحلي، جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد؛ والسيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر. د.ت. تفسير الجلالين. بدون رقم الطبعة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

المراغي، محمد مصطفى. 1985م. تفسير المراغي. الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

النسفي، أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود. د.ت. تفسير النسفي. بدون رقم الطبعة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، مصر.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري. د.ت. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج المسمى "صحيح مسلم بشرح النووي". الطبعة الأولى، المطبعة المصرية بالأزهر.

الهواري، هود بن محكم. تحقيق: شريفي، بالحاج بن سعيد. 1990م. تفسير هود الهواري المسمى "تفسير كتاب الله العزيز". الطبعة الأولى، دار الغربي الإسلامي، بيروت، لبنان.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري. تحقيق: داوودي، صفوت عدنان. د.ت. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. بدون رقم الطبعة، دار القلم، دمشق، سوريا.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري. تحقيق: عبد الموجود، عادل أحمد؛ ومعوض، علي محمد؛ وصيرة، أحمد محمد؛ والجمل، أحمد عبدالغني؛ وعويس، عبد الرحمن. تقديم: الفرماوي، عبدالحي. 1415هـ/1994م. الوسيط في تفسير القرآن المجيد. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

Repentance of Israel Children from Calf Worshipping by Killing Each Other

Suleiman bin Ibrahim Al-Husayn

College of Sharia and Islamic Studies, Al-Ahsa

ABSTRACT

The Holy Qur'an mentioned various accounts about the Children of Israel status in relation to the messages they had received from Allah the Almighty through His Prophets. Among these positions was their worshipping of the golden calf at the era of Prophet Moses (peace be upon him). Such action enacts Allah's wrath and led to their humiliation and misery.

Apparently, the Holy Qur'an declares that Allah (the Exalted) pardoned them and did not subject them to punishment. Allah said, "*And (remember) when we appointed for Moses forty nights, and (in his absence) you took the calf (for worship), and you were wrongdoers. Then after that we forgave you so that you might be grateful*." [Meanings of Quran, Sura 1: 51-52]. Some Qur'an interpretation books pointed out that the pardon they received came only after they had killed the guilty ones among them in repentance of that sin. They did so in compliance with Moses' command to them as recorded in the Qur'an. Allah said, "*And (remember) when Moses said to his people: "O my people! Verily, you have wronged yourselves by worshipping the calf. So, turn in repentance to your Creator and kill yourselves (the innocent kill the wrongdoers among you), that will be better for you with your Creator." Then He accepted your repentance. Truly, He is the One who accepts repentance, the Most Merciful*." [Meanings of Quran, Sura 1: 54]. The sources that documented the incident of the Children of Israel's killing each other had much suffered exaggeration and fabrication that some went so far to claim that the massacre left 70,000 dead people.

The present research intended to challenge these sources and negate their unfounded account. It also showed that the apparent account of the Qur'an regarding the story testifies that Allah's forgiveness was not in return for their killing one another, rather it was a blessing and clemency, The relevant verses of the Holy Qur'an had no direct sign of the Children of Israel's compliance to Allah's command to kill themselves. Therefore, the interpretation of those verses should not go beyond their explicit meaning.

Key Words: Calf worshipping, Children of Israel.